جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

مستويات التداخل النصي من خلال نظرية النص الغائب

الدكتور

الشيخ أحمد محمد محمود البار

الأستاذ المساعد في قسم اللغة العربية بكلية الآداب والفنون
جامعة حائل ـ المملكة العربية السعودية

العدد الرابع والعشرون

للعام ١٤٤٢هـ / ٢٠٢٠م

الجزء الثالث عشر

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠٢٠م

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

بسم الله الرحمن الرحيم

مستويات التداخل النصي من خلال نظرية النص الغائب

الشيخ أحمد محمد محمود البار

الأستاذ المساعد في قسم اللغة العربية بكلية الآداب والفنون جامعة حائل - المملكة العربية السعودية

البريد الإلكتروني: elshekh.elbar@yahoo.com

الملخص

يسعى هذا البحث لمعرفة طبيعة العلاقة التي تربط النصوص الأدبية بعضها ببعض ، فهو بهذا المعنى محاولة للوقوف على مستويات التداخل النصي الممكنة فنيا ، مستعينا في ذلك بتوظيف نظرية نقدية معاصرة ، هي نظرية النص الغائب التي هي نتاج ما أنتجه مفهوم التناص ، وقد أكدت هذه الدراسة على كون التداخل النص يكاد يكون أمرا لا مندوحة عنه ، غير أن له مستويات مختلفة ، منها ما يحتفظ فيه النص الجديد بنوع من الندية الفنية مع نصوصه الغائبة ، ومنها ما يفقد فيه هويته الفنية.

الكلمات المفتاحية : مستويات التداخل النصي ، نظرية النص الغائب ، التداخل النصي ، التناص .

Levels of Textual Interference Through the Theory of Absent Text

Al-Sheikh Ahmed Muhammad Mahmoud Bar
Assistant Professor at the College of Literature and Art, University of Hail, Saudi Arabia
Email: elshekh.elbar@yahoo.com

Abstract

This research seeks to know the nature of the relationship that links literary texts to each other. In this sense, it is an attempt to determine the technically possible levels of textual interference , with the help of employing a contemporary critical theory: the theory of the absent text, which is a product of what produced the concept of intertextuality. This study has emphasised on the fact that the text overlapping is almost unavoidable, but it has different levels; in some of them, the new text preserves a kind of technical parity with its absent texts, and in others, it loses its artistic id

Keywords : Text overlap levels, absent text theory, textual interference, intertextuality.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

يقوم هذا البحث على فكرة مؤداها أن التحقق النصي لا يقوم على هوية نصية منغلقة ، بل إن الوجود النصي في حقيقته فعالية نصية يتداخل ضمنها النص الحاضر بنصوصه الغائبة ، سواء كان التداخل تداخلا صريحا يصرح فيه النص الحاضر بنصوصه الغائبة أو كان تداخلا ضمنيا يحتاج فيه الناقد لبحث داخل التربة النصية عن النصوص السابقة المستترة ، لذلك رأيت أنه من مقتضيات المنهجية التذكير بأهم الدراسات التي تناولت الموضوع ، إذ من المعلوم أن نظرية النص الغائب – وإن كانت البنية الشرعية لمفهوم التناص – فإنها تختلف عن التناص في بعض أبعادها ، وهنا تحضرني دراستان استفدت منهما في تحديد معالم نظرية النص الغائب والوقوف عند أهم مستويات التداخل النصي وهما : كتاب تجليات التناص في الشعر العربي للدكتور محمد عزام وكتاب الشعر العربي في المغرب بنياته الدلالية للناقد المغربي الدكتور محمد بنيس ، فمن خلال هاتين الدراستين استطعت الوقوف عند أهم مستويات التداخل النصي وعن طبيعة العلاقة بين نظرية النص الغائب وبين مفهوم التناص، وقد اقتضت مني طبيعة الموضوع وأبعاده العلمية والمنهجية أن أتناوله من خلال المحاور المنهجية التالية:

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

١ المحور الأول: ظاهرة التداخل بين حتمية الالتقاء ومقومات الاستقلال

٢ المحور الثاني: الإطار المفهومي والنقدي لنظرية النص الغائب

٣ الخاتمة والتوصيات

٤ قائمة المصادر والمراجع

المحور الأول:

ظاهرة التداخل النصي بين حتمية الالتقاء، ومقومات الاستقلال

إن الحديث عن مفهوم النص الغائب يمر حتما ببوابة الحديث عن النص، على اعتبار أن نظرية النص الغائب ليست سوى تمثلا، وجزء محدودا من النظرية الأم: نظرية النص، إذ لا يمكن أن نفهم النص الغائب فهما صحيحا إلا بمقدار فهمنا الجاد لطبيعة النص أصلا، ذلك أن كل مقومات الوجود النصي والتي من ضمنها مفهوم الاستقلالية ليست مفاهيم مطلقة، بل لابد من أن نعدل من نظرتنا لمعنى الاستقلالية، كي لا نفهمها وكأنها اختزال أو انكفاء على الذات، فهي بهذا المعنى لا تعني بالضرورة الفكاك من الماضي أو الآخر، أو التنكر للتراث وإنما هي: قدرة النص على الامتياح الانتقائي من الذاكرة التراثية، ولعل هذا ما تفطن له وانتبه رولان بارت، إذ يقول في سياق تأكيده على حتمية التداخل بين النصوص: "وإنني لأتذوق سلطان الصياغات، وانقلاب الأصول، والمرح الذي يأتي بنص سابق من نص لاحق"(١)، فالوجود النصي لا يتحقق إلا من خلال قدرة النص الحوارية، وانفتاحه على غيره من النصوص التي تتنازعه وتتزاوج داخله، وهو ما يؤكده بارت، إذ يقول: "إننا لنعرف أن النص ليس سطرا من الكلمات، ينتج عنه معنى لاهوتي، من قبل الله، ولكنه فضاء لأبعاد متعددة، تتراوح فيه كتابات مختلفة، وتتنازع، دون أن يكون أي منها أصليا: فالنص نسيج لأقوال ناتجة عن ألف بؤرة من بؤر الثقافة، إن الكاتب لا بد إلا أن يحاكي حركة

(١) رولان بارت، لذة النص، ترجمة منذر عياشي ،منشورات دار الإنماء الحضاري باتفاق خاص مع دار لوسوي في باريس ، ط ١ ، ١٩٩٢، ص: ٧٠.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

سابقة له، على الدوام"[١] وهو امتياح يحتفظ معه النص بكينونته النصية واستقلاله الدلالي، وهذا ما يؤدي لإحداث ازدواجية، يصبح معها كل نشاط نصي مرشحا للاستدعاء والتضمين، باعتباره نصا مثاليا نموذجا أو معرضا للاقتراض والتقليد حال كونه نصا ماثلا، الأمر الذي يجعل الكتابة النصية مشدودة بين وترين: أحدهما بارز ناطق: (النص الماثل)، بينما الثاني مستتر هامس: (النص الغائب)، ومن شأن هذه الازدواجية النصية أن تستتبع معها صراعا بين الذاكرة النصية: المقتضية بطبيعتها للتقليد وبين ثقل اللحظة الإبداعية وما تقتضيه من انفصال مؤقت عن العوالم الخارجة عن الذات، ولعل هذا بالذات ما تفطن له رولان بارت من خلال تفريقه الصارم بين أنماط الوجود النصي، إذ يقول: " وإن هذا الجسد الذي يراه العلم ويتكلم عنه لهو نص النحاة، والنقاد، والمفسرين، وفقهاء اللغة، إنه النص الظاهر ولكن لدينا أيضا: نص المتعة، وهو مصنوع فقط من العلاقات الجنسية، وهو جسد لا تربطه بالأول أية صلة [٢]" وهنا تحضرني مقولة أخرى لرولان بارت حاول فيها التأسيس لفكرة التداخل النصي، إذ يقول: "وإن هذا الأمر لا يعني بتاتا أنني مختص ببروست: فبروست هو من يأتيني، وليس هو من أناديه، إنه ليس سلطة، ولكنه مجرد ذكرى مستديرة، وهذه هي خاصة النص المتداخل: إنها استحالة العيش خارج النص اللامتناهي"[٣] حيث فرق بين نصين، أحدهما ظاهر بينما الثاني مستتر كامن، هو نص المتعة، واصفا

(١) رولان بارت، نقد وحقيقة، ترجمة منذر عياشي ، مشورات مركز الإنماء الحضاري باتفاق خاص مع دار لوسوي بباريس، ١٩٩٤، ص: ٢١.
(٢) رولان بارت، لذة النص، مرجع سابق، ص: ٤٢.
(٣) المرجع نفسه، ص:٧٠.

الحالة الأولى بالجسد النصي، في حين اصطلح على تسمية النص في لحظات الكمون بمصطلح: نص المتعة، فبارت يرى أن وجود النص وتحقق لذته مرتبطان بوجود انسجام وتعايش مع الثقافة السائدة، إذ يقول " إن نص اللذة هو الذي يرضى، فيملأ، فيهب الغبطة، إنه النص الذي ينحدر من الثقافة، فلا يحدث قطيعة معها، ويرتبط بممارسات مريحة للقراءة "[١] ومع كونه يدرك حجم الصلة العضوية بين مختلف أنماط الوجود النصي، لكنه استشعار للفرق المنهجي بين هذه الأنماط، إن أي فهم جاد لمفهوم النص يقودنا إلى الإقرار بحتمية مبدأ (التداخل النصي)، بحيث تغدو العلاقة بين النص الحاضر وذاكرته النصية، ولم ينفرد بارت باستشعار حتمية التداخل النصي، إذ أن نظرة فاحصة للإرث التفكيكي، فإن هذه النظرة كفيلة بأن تكشف لنا وجود وعي نقدي لديهم باحتمالية مبدأ التداخل النصي، شأنهم في ذلك شأن جل المشتغلين بالدراسات النقدية، على تفاوت في درجة الإقرار ومستواه، ولعل فكرة انسجام النص التي روج لها بارت تقتضي وجود ذهنية، تابعة، وتفترضان أن يتضمن النص إحالة نصية على النصوص المتقدمة عليه، والمشتركة معه: شكلا، أو مضمونا، كما أن مفهوم التفاعل الذي سوقت له جوليا يستوجب هو الآخر أن يشتمل النص على إشارات نصية، بمقدورها أن تحيل القارئ إلى الذاكرة النصية المشتركة، على أن تبقى لهذه الإحالة على النصوص المتقدمة حدودا ترتفع بهذا التداخل النصي عن أن يبقى مجرد اجترار، أو تكرار، يفقد معه النص الحاضر هويته النصية، ويتجلى مبدأ حتمية التداخل النصي في أمر هام هو أن حتمية: (التداخل النصي)، تبقى مندرجة في سياق ما يعرف نقديا: بظاهرتي التأثر

(١) رولان بارت، لذة النص، مرجع سابق، ص: ٣٩.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

والتأثير اللتين هما من أكثر الظواهر النقدية تعقيدا وحساسية وصعوبة حسم، مما يستدعي منا عدم المجازفة في التعميم والتبسيط، بل لا بد من الأخذ بمبدأ النسبية لنعدل من الصورة النمطية التي ورثناها عن نقدنا العربي القديم والتي تحولت معها ظاهرة: (التداخل النصي) بفعل طغيان الذات على المنهج إلى مقدح فني، وطعن في أصالة الكاتب، أو الأديب، بسبب ما روجه الدرس النقدي التراثي بخصوص قضايا: (السرقات الأدبية)، إذ تعمد بعض النقاد إدراج (التداخل النصي) ضمنها، ومن هذا المنطلق فإن من واجبنا ونحن بصدد الحديث عن مفهوم النص الغائب، الذي هو: الترجمان النقدي والابن الشرعي لظاهرة: (التداخل النصي) التأكيد على حقيقة هامة، مفادها: أنه لا وجود في دراستنا هذه لأنساق تراتبية، تجعل من النص المستوحى منه مصدرا للكمال، ويتحول فيها النص الماثل، أو الظاهر وكأنه شيء من سقط المتاع، ولعل أهم ما يعترضني في هذا المبحث هو: وجود رؤيتين متناقضتين في تصنيفهما لظاهرة التداخل النصي، بين من يتحدث عنها، باعتبارها: جبرية فنية لا مندوحة أمام المؤلف أو الشاعر سوى الخضوع لها، نظرا لكونها لا تمنح للمؤلف حرية الاختيار في استدعاء نصوصه الغائبة، وبين من يتحدث عن ظاهرة التداخل النصي باعتبارها: استدعاء حرا من الذاكرة النصية، وليست عملا قهريا، وهذا ما فصله بارت بقوله: (ليس نص بروست هو ما أدعوه، بل ما يأتي إلي، إنه ليس سلطة، بل مجرد ذكرى حلقية)[١]، إن الحديث عن وجود جبرية فنية، أو استدعاء نصي اختياري، يفرضان علينا الحديث عن جدلية التبعية النصية وإشكال الاستقلال الفني، بناء على فلسفة نقدية ترى أن لا سبيل للوصول إلى الإبداع

(١) رولان بارت، لذة النص، مرجع سابق، ص: ٧٠

والاستقلال النصي إلا بواسطة السير على دروب من التقليد الـواعي الـذي يعيد إنتاج النموذج التراثي إنتاجا يدرك خصائص اللحظة التاريخية التي كتب النص في سياقها، وقد قادتنا الخشية من محاذير الذوبان النصي لأن نجعـل عنوان المبحث الذي بين أيدينا: (التداخل النص بين حتمية الالتقاء وضرورة الاستقلال)، فهذه الصياغة البينية تفترض بأن هناك طريقا مثاليـا للتـداخل النصي تحقق بموجبه النصوص علاقاتها الحوارية مع أسلافها الغائبة، دون أن تتحول إلى إعادة سبك لعناصر سابقة، ويمكن أن تتحقق هـذه المعادلـة الصعبة من خلال القدرة على خلق علاقة مع التراث لا تصل حـد التمـاهي معه، فالتداخل مع الشعر القديم أمر لا يمكن إنكاره، حتى من دعاة الحداثة، إذ يكفينا أن نتوقف مع أدونيس، وهو يقر بحتمية التـداخل مـع الـذاكرة الشعرية، التراثية، إذ نجده يعتبر اللغة مستودع الماضي، لكنها في الوقـت نفسه ينبوع المستقبل، وهذا ما جعل أودينيس يقر بأن الكلام يفـتح بعضـه بعضا، مشددا على ضرورة رفض أي دلالة لا تتطابق مـع إيقـاع الحيـاة المستجدة،[١] إذ يقول "لا يعني ذلك أن الشاعر الجديد يبدأ من لا شيء، وأن على الشاعر ليكون جديدا أن يستأصل جذوره، وينفصل عـن التـراث"[٢]، ويشرح أدونيس الطريقة المثلى للعودة للتراث، والتداخل معـه بصـيغة لا تخلو من اشتراطات فنية، إذ يقول: "فالارتباط بالشعر القديم لا يكـون تبعـا لذلك ارتباط بطرائق تعبيره، بل بالروح العميق الذي حركه"[٣] ، ولكيلا نلمز

(١) أدونيس، الثابت والمتحول، بحث في الإتباع والإبداع عند العـرب، الناشـر: دار العـودة، بيروت، ط ١، ١٩٧٨م، ج ٣: صدمة الحداثة، ص: ١٨.

(٢) المرجع نفسه، ص:٥٦.

(٣) المرجع نفسه، ص: ٥٦.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

بأحادية الطرح فإن ضرورات المنهج تجعلنا نقف عند رؤية مغايرة لرؤية أدونيس، في تنصلها من التراث ووضعها الشروط التعجيزية للشراكة النصية مع نصوصه، نجد هذه الرؤية المختلفة مع رؤية أدونيس عند الدكتور الغذامي الذي يرى أن هناك علاقة عضوية بين التراث بمرجعياته المتناقضة وبين العصر بمعطياته المختلفة والمتناقضة هي الأخرى[١] ولهذا فإن وضع الضوابط والقيود أمام النصوص المعاصرة في استلهامها لروافدها التراثية يبدو أمرا لا يخلو من عنت، وسعيا مني للتوفيق بين هذه الآراء المتضاربة، فإن علي الإقرار بوجود علاقة مثالية، لا يتنكر فيها النص الظاهر أو يقف أمام تيار الالتقاء النصي الجارف الذي لا مفر منه، دون أن يحرمه ذلك من شرف مصاولة نصه النموذجي، دون أن يذوب داخله، ومع أنه لا وجود للوصفات الجاهزة في عالم النقد، إلا أن إدراكنا العميق لطبيعة النص باعتباره: انبثاقا لغويا عن العالم الذي يشترك فيه كل من المبدع والقارئ والتراث الرافد للإبداع، فإن هذا الوعي سيخفف من وطأة التصادم بين حتميات التقليد المستوجبة للالتقاء وإلحاح التجديد الداعي إلى الانفصال[٢]

(١) عبد الله الغذامي، تشريح النص، منشورات المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، ط ٢، ٢٠٠٦م، ص: ١١

(٢) المرجع نفسه، ص: ٥٩

المحور الثاني

الإطار المفهومي والنقدي لنظرية للنص الغائب:

تقتضي مني الصرامة المنهجية أن أحدد ما أعنيه بمفهوم النص الغائب، الذي هو مفهوم استخدمته في هذه الدراسة، ابتغاء إسقاطه على مدونة شعرية تراثية، تنتمي إلى القرنين: الثاني عشر والثالث عشر الهجريين، ورغم اعترافي بجدة المفهوم، وتعدد وجهات نظر النقاد حوله، فإنني سأحاول تحديد الإطار المفاهيمي للنص الغائب، من خلال استعراض أهم ما قدمه النقاد، العرب، المعاصرون حوله من مقترحات، مستظلا بظلالها، محاولا الخروج من ربقتها، ما استطعت لذلك سبيلا، وستكون وقفتي الأولى في هذا الاستعراض مع كتاب للدكتور: محمد عزام، وهو بعنوان: النص الغائب، تجليات التناص في الشعر العربي، حيث نجد الرجل يقر من العنوان بأن النص الغائب ليس سوى مظهر من مظاهر التناص، ليستعرض ضمن حيثيات الكتاب ما يعنيه بالنص الغائب، وما يترتب على تداوله[١]، إذ يقول "النص الغائب مصطلح، نقدي، جديد، ظهر في ظل الاتجاهات، النقدية، الجديدة، وعنى أن العمل الأدبي يدرك في علاقته بالأعمال الأخرى، فالأدب ينمو في عالم مليء بكلمات الآخرين، والنص تشكيل لنصوص سابقة، ومعاصرة، أعيدة صياغتها بشكل جديد، وليست هناك حدود بين نص وآخر، وإنما يأخذ النص من نصوص أخرى، ويعطيها في آن"[٢].

---

(١) محمد عزام، النص الغائب، تجليات التناص في الشعر العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١، ص: ١١.

(٢) المرجع نفسه، ص: ١١.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

إن استدارة الطرف بشيء من التأمل على ما سقناه من كلام الدكتور: عزام، تجعلنا نخرج باستنتاجين، هما:

١- أن مبدأ التداخل النصي يبدو حتمية فنية، إذ أن كل كيان نصي يحمل في ذاته بذور التداخل مع النصوص الأخرى، فالنص ما هو إلا استعادة متقنة للنصوص المتداخلة معه.

٢- أن التداخل النصي لا يلغي الخصوصية النصية، فلا بد للنص الماثل من أن يمتلك صياغة جديدة، تمنحه صفة الاستقلالية.

إن تتبع مفهوم: النص الغائب عند محمد عزام، يقودنا للإقرار بما أكدناه سابقا من ارتباط هذا المفهوم عنده بمفهوم: التناص، فهو يعتبر النص الغائب عملية تناص متقنة، إذ نجده يفصل هذه الحقيقة، بقوله: " فبمجرد أن يطلق الكاتب نصه الجديد، الذي هو عبارة عن مجموعة من نصوص سابقة، ومعاصرة، فإنه يدخل نصه في عمليات (تناص) جديدة "[١]، ويرى الدكتور عزام أن عملية الإنتاج النصي لا تتم إلا إذا تضافرت جملة من العوامل، بعضها من صنع النصوص الغائبة، بينما يعود جزئها الآخر إلى القارئ بوصفه الأداة الثانية في تفسير النص وتأويله[٢]، ويشرح لنا الدكتور عزام هذه العملية بقوله: " وتصبح عملية (إنتاج النص) عملية تشترك فيها النصوص الغائبة، باعتبارها الأدوات الأساسية للإنتاج مع النص الماثل، باعتبار القارئ هو الأداة الثانية في تفسير النص وتأويله، وتظل عملية القراءة هي عملية أخذ، وعطاء، أخذ من النص، وعطاء له، من قبل

(١) محمد عزام، النص الغائب، مرجع سابق، ص: ١١.
(٢) المرجع نفسه، ص: ١٢.

المخزون الأدبي، والثقافي للقارئ، وهكذا يتفاعل النصان: الغائب، والماثل، من أجل إنتاج نص جديد، يشكل في الوقت نفسه تناصا مع مكنونات الثقافة، والقارئ"[١]، وما دمنا قد أخذنا على عاتقنا مهمة تتبع مفهوم النص الغائب في الاستخدام النقدي المعاصر، فإنني أقف عند رأي نقدي للدكتور: منذر عياشي، يرى فيه أن النص الغائب ليس سوى نشاط يقوم به القارئ، بينما تتكفل اللغة بصنع النص الموجود، إذ يقول: " وهذا يعني أن النص نصان، نص موجود، تقوله لغته، ونص غائب، يقوله قارئ منتظر"[٢] وبما أنني مطالب بتحديد الخيار النقدي الذي أتبناه بخصوص مفهوم النص الغائب، فإنني أميل إلى تمييز لا يصل حد التفريق بين مفهوم النص الغائب ومفهوم التناص، مستعينا في ذلك بطرح نقدي، أستوحيه من الدكتور خليل الموسى، يرى أن النص الغائب عملية من صنع القارئ،[٣] وهو هنا يكاد يتطابق مع رأي الدكتور منذر عياشي المتقدم، حيث إن هناك دلالات مخبأة داخل كل نص، يكشف عنها التناص، وعلى هذا الأساس فقد لا يكون من المسموح به من الناحية المنهجية الحديث عن مفهوم النص الغائب دون التطرق إلى قضية (التناص)، باعتبارها: الترجمان النقدي والواجهة الإشكالية لهذا المفهوم، فالعلاقة بين مفهوم (التناص) ومفهوم (النص الغائب) علاقة وجودية تشبه العلاقة بين الأثر والنتيجة، والسبب والمسبب، مما يجعل الصلة بينهما عضوية، وهو ما يستدعي تقديم مقترح مفاهيمي للمفهومين

(١) محمد عزام، النص الغائب، مرجع سابق، ص: ١٢.

(٢) منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، منشورات: مركز الإنماء الحضاري، ط ١، ٢٠٠٢م، ص: ١١٩.

(٣) خليل الموسى، قراءات الشعر الحيث والمعاصر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٠م، ص: ١٠ - ١١

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

معا، فتحديد مفهوم النص الغائب يمر من خلال بوابة التناص، إذ يتجلى النص الغائب من خلال القراءة التفكيكية للنص الحاضر، مع محاصرة المؤلف الجاثم عليه، بعد أن تحرر هذا النص منه، وأصبح ناجزا وخاصا بالقارئ وحده(١)، ولهذا فإن من مزايا التناص كونه يلغي الملكية الفكرية للنصوص، لتصبح الكلمات والدلالات النصية ملكا مشاعا، وتتحول العبارات الناصية إلى عبارات قابلة للتحول، لتنتقل من النص الغائب إلى النص الجديد، ومع أن التناص يلغي قانون الملكية الخاصة للنصوص، وينادي بموت المؤلف، فإنه في الوقت ذاته يرفض مقولة نقاء الأجناس الأدبية(٢) ، مانعا بذلك كل المناهج غير النصية من تفسير النص الحاضر بالنص الغائب، ولن يتسنى للتناص أن يلعب كل هذه الأدوار، وينهض بكل هذه الأعباء، مالم يسعفه القارئ بالقراءة التفكيكية، المزدوجة، التي يسعى القارئ من خلالها إلى قراءة النص على مرحلتين، فهو يقرئه قراءة أولى لمعرفة البنية السطحية(٣) المكونة له، ليشفعها بعد ذلك بقراءة ثانية، تبحث عن المعاني المغيبة العميقة الراقدة في قعر النص(٤)، فقد تفطن الدكتور خليل الموسى إلى أن هناك دلالات غائبة، موجودة في كل نص، عبر هو عنها بلحظات الصمت أحيانا، وبالنص الغائب، والنص المخبئ بين السطور، أو الدلالة المسكوت عنها في أحايين أخرى(٥)، وهذا ما عبر عنه صراحة، بقوله: "إن لحظات الصمت هذه، تتضمن النواة الدلالية في النص، لأنها مشحونة بقوة

(١) خليل الموسى، قراءات الشعر الحيث والمعاصر، مرجع سابق، ص: ١٠ – ١١
(٢) المرجع نفسه، ص:١١.
(٣) المرجع نفسه، ص:١١.
(٤) المرجع نفسه، ص: ١٠ – ١١
(٥) المرجع نفسه، ص: ٣٩.

إيحائية، صامتة، تستدرج القارئ إلى إكمال النص، وإنتاجه، وتورطه في البحث عن عناصر الغياب، ولذلك فإنها تستثير الجدل والتأويل من القارئ، إن لحظات الصمت هذه تستثيرنا، وتحرضنا على معرفة ما لم يقله الشاعر صراحة، وهو النص الغائب، أو النص المخبئ بين السطور، أو الدلالة المسكوت عنها"(١)، وبإمكاننا أن نعرف النص الغائب بعد كل الآراء السابقة بأنه: "مجموعة النصوص المستترة، التي يحويها النص الشعري في بنيته، وتعمل بشكل باطني، عضوي على تحقق هذا النص، وتشكل دلالته، ومن ثم تتعطل أي عملية فهم واستيعاب لهذا النص المركب، ولهذه الدلالة الغامضة، بدون معرفة حقيقية بهذا النص الغائب، وتخريج معانيه، وإضاءة ظلماته الرمزية"(٢)، وقد استطاع الدكتور خليل موسى أن يفرق بين نمطين من أنماط التناص، أحدهما اصطلح على تسميته بالتناص المتوازي وفيه يجعل الكاتب نصه الحاضر متشابها مع نصه الغائب، بينما اصطلح على تسمية الصنف الثاني من أصناف التناص بالتناص العمودي المتعارض(٣)، وهو مختلف عن سابقه، إذ يخالف فيه النص الحاضر نصه الغائب، وهذا ما جلاه وفصله الدكتور الباحث بقوله: "وإذا كان الشاعر يستعير أصواتا من الشعر العربي، أو الفرنسي، ليقيم منها تناصا تثاقفيا، طوليا، متوازيا، أو تناصا، تثاقفيا، عموديا، متعارضا، فهو في التناص المتوازي يجعل نصه الحاضر شبيها، فهو يسلم آخر أسلحته للحبيبة، ويسلم أمره، وقلبه، وإذا ثقافة

(١) خليل الموسى، قراءة في الشعر الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص: ٣٩.
(٢) إبراهيم رماني، النص الغائب في الشعر العربي الحديث، مجلة الوحدة، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، المملكة المغربية، ع٤٩، صفر ١٤٠٩هـ، أكتوبر١٩٨٨م، ص:٥٣.
(٣) خليل الموسى، قراءة في الشعر الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص: ٤٥.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

الشاعر استسلامية هي الأخرى، وقد ترك النصوص الأخرى تدخل إلى نصه، وتشكله تشكيلا موازيا، وهو في التناص العمودي المتعارض، يخالف نصه، وإذا ثقافة الشاعر تستخدم النصوص في موضوعات مختلفة عن موضوعها في النص الغائب"[١]، وقد ظل صاحبنا يلح على ما يسميه: "دلالة النص الغائبة"[٢]، إذ يقول: "ثم صارت هذه المقاربة لنصوص في أعماق النص، عبر المحور العمودي، لتستحضر الغياب: دلالة النص، وتبين بعد ذلك رؤية الناص للعالم من حوله، تجربة، وثقافة"[٣] فالتناص بهذا المعنى ليس وصفة نقدية جاهزة، بل إن له مراتب حضور متعددة تتفاوت في مستويات جلائها وتمحّضها، وقد أجملها البعض في المستويات الآتية:

أ – التناص الصريح: وهو أكثر المستويات صراحة ووضوحا، نظرا لأن الإحالة فيه على الذاكرة النصية الغائبة بادية للعيان، تظهر لأول وهلة.

ب – التناص المستتر: وهو أكثر مستويات التناص غموضا واستتارا، وهو أمر عائد إلى أن الإحالة فيه على الذاكرة النصية كثيرا ما تكون غامضة، تحوج الناقد للحفر في أعماق النص الحاضر، للتعرف على مرجعيات الفنية.

ج – التناص نصف المستتر: ويعني به النوع الذي يلمح فيه المؤلف على نصه الغائب تلميحا لا صراحة فيه[٤]، وبغض النظر عن تحفظنا على هذا التصنيف السابق، وعلى الرؤية المنهجية المسيرة له، ولعل أكثر

(١) خليل الموسى، قراءة في الشعر الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص: ٤٥.
(٢) المرجع نفسه، ص: ٤٧.
(٣) المرجع نفسه، ص: ٤٧.
(٤) التناص بين التراث والمعاصرة: الدكتور نور الهدى لوشن، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج: ١٥، ع: ٢٦، صفر، ١٤٢٤هـ، ص: ١٠٢٦.

الدراسات النقدية المعاصرة شمولية ووعيا بمفهوم النص الغائب والتناص تلك الرؤية التي يقدمها الباحث: عصام، فضل الله، حسين، واصل، في كتابه: (التناص التراثي في الشعر العربي المعاصر محمد العواضي أنموذجا)، إذ يرى فيه أن مفهوم التناص، رغم كل ما أسيل حوله من مداد، بدءا من جوليا كريستيفا، ومرورا بريفاتير، فإنه ظل مفهوم مطاطيا، غير مقنن، فلم يكتسب قيمته المنهجية في رأي الباحث إلا عند الناقد الفرنسي: جيرار جينيت[١]، الذي انتقل بمفهوم التناص انتقالا عميقا، محوريا، أوضحه الباحث واصل بقوله: "غير أن التناص ظل مطاطيا، غير مقنن، ولم يكتسي قيمته المنهجية، ووضوحه، إلا على يد الباحث الفرنسي: جيرار، جينيت، الذي انتقل بالمصطلح انتقالا، عميقا، فاعتبره نمطا/ جزءا واحدا من أنماط العلاقات غير النصية"[٢] ويستطرد صاحبنا في حديثه عن مفهوم التناص عند جينيت، مستعرضا أهم آليات التناص، إذ يقول: " فأصبح التناص بذلك جزءا من فئات محددة، يسوقها جينيت، مسلسلة، يفضي كل منها إلى ما يليه"[٣] وهذه الآليات – كما نقلها صاحبنا عن جينيت– هي:

١- التناص: ويحدده با" الحضور الفعلي لنص في آخر" ويتم عبر آليات محددة وهي: الاقتباس، والسرقة، والإيحاء[٤].

٢- المناص: وهو كل ما يحيط بالمتن، ويجعل منه متنا/ نصا[٥]، ويقسمه جينيت إلى قسمين هما: النص المحيط، والنص الفوقي.

---

(١) عصام، حفظ الله، حسين، واصل، التناص التراثي في الشعر العربي المعاصر، (أحمد العواضي أنموذجا) منشورات دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، ط ١، ٢٠١١، ص: ١٧.

(٢) المرجع نفسه، ص:١٧.

(٣) المرجع نفسه، ص: ١٧.

(٤) المرجع نفسه، ص: ١٧.

(٥) المرجع نفسه، ص: ١٨.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

٣- المتانص: ويتمثل عند جينيت في علاقة الشرح أو التفسير أو التعليق.

٤- النص الجامع: ويتمثل في العلاقة البكماء، التي تربط النص بجنسه، وهي عند جينيت تخص القارئ أكثر من الكاتب.

وبعد أن فرغ الباحث من تتبعه لمفهوم التناص، وآليات حضوره، والفرق بينه وبين المفاهيم المتداخلة معه، شرع في تتبع مفهوم آخر، اشتغل عليه جينيت أكثر من غيره من الأقسام الأخرى، وهو مفهوم: "التعلق النصي"[١] ويعني عند جينيت: اشتقاق نص لاحق، ويسميه: "النص ب" من نص سابق عليه في الوجود، ويسميه: "النص أ"[٢] ويكون هذا الاشتقاق بنص معلن ومهم، ويتم إعادة إنتاج النص اللاحق عن طريق المحاكات، أو التحويل، وهو أهم عند جينيت من سابقه[٣]، ويمكننا أن نؤكد ادعاء مفاده أن القراءة التصنيفية السابقة التي قدمها جينيت عن التناص كانت وقودا للنقاد العرب المعاصرين في تفريعاتهم وتصنيفاتهم لمراتب الحضور النصي تقسيما تراتبيا، نقف عند مظهر من مظاهره عند محمد بنيس في تصنيفه الآتي لمراتب الحضور النصي:

١. الاجترار[٤]: وفيه يكون النص الحاضر استمرارا للنص الغائب، ويتمحور دور الشاعر فيه على محاكاة النص الغائب وإعادة صياغته.

٢. الامتصاص: وفيه تكون العلاقة أيضا بين النصين الحاضر والغائب حميمية، تتجلى على شكل قبول وتقديس من النص الماثل لنموذجه المحاكى،

(١) عصام، حفظ الله، حسين، واصل، التناص التراثي في الشعر العربي المعاصر، (أحمد العواضي أنموذجا)، مرجع سابق، ص: ١٩.
(٢) المرجع نفسه، ص: ١٩.
(٣) المرجع نفسه، ص: ١٩.
(٤) محمد بنيس: ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب (مقاربة بنيوية) الطبعة:١، دار العودة، بيروت، ١٩٧٩م، ص: ٢٥٣

فيعيد كتابته بطريقة لا تمس جوهره، منطلقا من فلسفة نقدية ترى استحالة إقامة الندية مع النص النموذج المقلد أو الدخول معه في علاقة حوارية متبادلة.

٣. الحوار: وفيه نقد للنص الغائب وتخريب لكل مفاهيمه المتخلفة، وتفجير للطاقات الكامنة فيه.

وقد لا نبرئ الدكتور خليل الموسى من أن يكون هو الآخر قد تأثر بتصنيف جنيت السابق حيث صنف الموسى التناص لمستوين هما:

أ – التناص المتوازي: وفيه يحتفظ المؤلف أو الكاتب بعناصر التشابه بين نصه ونصوصه الغائبة ويهادنها، ويترك لها حرية الدخول إلى نصه، لتشكله تشكيلا متوازيا.

ب – التناص العمودي المتعارض: وفيه يخالف المؤلف أو الكاتب نصه الغائب، فيسمح لثقافته أن تستخدم نصوصه في موضوعات مختلفة عن مضامينها في النص الغائب[١]، وقد سوغ خليل الموسى لتصنيفه الآنف بالتأكيد على حقيقة نقدية مفادها: أن التناص وهو يلغي مبدأ الملكية الفكرية للنصوص ويضع حدا للوصاية النصية التي كان المؤلف يفرضها، فإنه مع ذلك يمنح المؤلف الحق في امتلاك السلطة التقديرية في تحديد هوية النص، كما أن له الحق أيضا في آليات استدعاء نصوصه الغائبة، فيستل منها ما يلبي تطلعاته، ويلائم توجهه[٢]، فيحول النص الغائب من العمومية إلى الخصوصية، أو العكس ويستبدل وظيفته الدلالية بدلالة أخرى ذات نكهة ذاتية، تعبر عن واقعه، ولم

(١) خليل الموسى، قراءات الشعر الحديث المعاصر، مرجع سابق، ص: ٤٥.
(٢) المرجع نفسه: ص، ٤٦

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

يسلم من ظاهرة التبعية التصنيفية لجينيت الدكتور حفظ الله واصل الذي صنف مفهوم التناص تصنيفا تراتبيا، أجمله فيما يلي:

١ – التناص الاقتباسي الاستشهادي: ويمثل هذا الصنف أعلى مستويات التداخل النصي، حيث يعلن النص الغائب فيه عن نفسه، داخل ثنايا النص الحاضر، لينشأ عن ذلك اندماج نصي، يغدو بموجبه النصان كتلة واحدة غير متشفية.

٢ – التناص الإحالي: ويعتبر التناص الإحالي أقل ظهورا مقارنة بسابقه، إذ لا يعلن فيه عن وجود ملفوظ حرفي مأخوذ من نص آخر، ومندرج في بنيته بشكل صريح معلن، بل يكتفي فيه النص الحاضر بالإحالة على نصه الغائب، كما أن الذاكرة القرائية تشير إليه حيث إن النص الماثل في هذا الصنف العلائقي ينظر إلى نصه الغائب نظرة انتقائية تستقي ما تراه ملائما للرؤية الجديدة التي تتبناها(١).

٣ – التناص الإيحائي: وهو أقل أنواع التناص حرفية ووضوحا، وأكثرها عمقا، إذ فيه يعمل النص الحاضر على تفكيك المتانص، وتخريب معماره التركيبي والدلالي، كما يعمل على مراوغة المتلقي عبر إخفاء نصوصه الغائبة، والتستر عليها، مع أن أدنى مجهود يبذل من طرف القارئ كفيل بأن يوصله لثنايا العلاقة الرابطة بين النصين.

(١) ينظر عصام حفظ الله، حسين، واصل، التناص التراثي في الشعر العربي المعاصر، (أحمد العواضي أنموذجا) مرجع سابق، ص:٧٨ – ٧٩ – ٩٥ – ١٠٩

الخاتمة

إن تفسير ظاهرة الاستدعاء النصي (التناص) تقتضي من الباحث الكثير من التأمل والحيطة، كيلا يقدم قراءة تفسيرية اجتزائية، لا تترك للمؤلف حيزا ذاتيا، من خلال تأكيدها على كون التناص يمثل جبرية فنية، وهو ما يسلب المؤلف مبدأ المبادرة والاختيار، وبما أننا مطالبون بتقديم قراءة تفسيرية للتناص باعتباره: مفهوما وأنماطا وآليات، فإننا نميل لتقديم المقترح التفسيري الآتي، والذي على أساسه يمكننا أن نجمل أهم مضامين البحث الذي بين أيدينا في النقاط الآتية:

١ أن ظاهرة التناص وما تستتبعه من استدعاء نصي ليست نابعة من فراغ أو ناشئة عن صدفة لأن منطقية الأشياء لا تسمح لنا بهذا التفسير بل هي صادرة عن وعي فني، فهذا ما تقره البداهة ويؤكد الحدس.

٢ أن وراء ظاهرة التناص عقيدة فنية، تحفز على استدعاء النصوص الغائبة، وتنظم حضورها، وتعمل بشكل جاد على إحداث تلاحم بين النصين الحاضر والغائب

٣ – أن ظاهرة التناص تظل نتيجة لتضافر جملة من العوامل بعضها ذاتي: اختياري، تفرضه ميولات الكاتب الفنية، وخلفياته الثقافية، بينما يكمن الجزء الثاني في عوامل خارجة عن إرادة المبدع، لأنها امتياح من الذاكرة، واستدعاء غير واع لها.

٤ أن مبدأ التلاحم النصي الناتج عن ظاهرة التناص لا يلغي كينونة النص وهويته، بل يظل مستقلا بذاته.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ووعيا بمضامين المقترحات المفاهمية السابقة، فإن نظرتنا للعلاقة بين النصوص يجب أن تكون نظرة مركبة، تعتبر الذاكرة النصية التراثية مـــوردا فنيا، تستقي منه النصوص الماثلة مكرسة بـــذلك تبعيـــة فنيـــة، أو علاقـــة حوارية ندية بحيث يغدو كل من النصين الحاضر والغائب مساهما في إنتاج الآخر وتكوينه.

قائمة المصادر والمراجع:

- إبراهيم رماني، النص الغائب في الشعر العربي الحديث، مجلة الوحدة، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، المملكة المغربية، ع ٤٩، صفر ١٤٠٩هـ، أكتوبر ١٩٨٨.

- أدونيس، الثابت والمتحول، بحث في الإتباع والإبداع عند العرب، الناشر: دار العودة، بيروت، ط ١، ١٩٧٨م، ج ٣: صدمة الحداثة.

- خليل الموسى، قراءات الشعر الحيث والمعاصر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٠م.

- رولان بارت، لذة النص، ترجمة منذر عياشي ،منشورات دار الإنماء الحضاري ياتفاق خاص مع دار لوسوي في باريس ، ط ١ ، ١٩٩٢.

- رولان بارت، نقد وحقيقة، ترجمة منذر عياشي ، مشورات مركز الإنماء الحضاري باتفاق خاص مع دار لوسوي بباريس، ١٩٩٤.

- عبد الله الغذامي، تشريح النص، منشورات المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، ط ٢، ٢٠٠٦م.

- عصام، حفظ الله، حسين، واصل، التناص التراثي في الشعر العربي المعاصر، (أحمد العواضي أنموذجا) منشورات دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، ط ١، ٢٠١١.

- محمد بنيس: ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب (مقاربة بنيوية) الطبعة:١، دار العودة، بيروت، ١٩٧٩م،

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

- محمد عزام، النص الغائب، تجليات التناص في الشعر العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١.

- منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، منشورات: مركز الإنماء الحضاري، ط ١، ٢٠٠٢م.

- نور الدين لوشن ، التناص بين التراث والمعاصرة: الدكتور نور الهدى لوشن، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج: ١٥، ع: ٢٦، صفر، ١٤٢٤هـ.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١.	ملخص البحث	١٢٧٩٧
٢.	Abstract	١٢٧٩٨
٣.	المقدمة	١٢٧٩٩
٤.	المحور الأول: ظاهرة التداخل بين حتمية الالتقاء ومقومات الاستقلال	١٢٨٠١
٥.	المحور الثاني: الإطار المفهومي والنقدي لنظرية النص الغائب	١٢٨٠٧
٦.	الخاتمة	١٢٨١٧
٧.	قائمة المصادر والمراجع	١٢٨١٩
٨.	فهرس الموضوعات	١٢٨٢١